مجلة الحكمة للدراسات التاريخية ISSN : 2353-0472
المجلد5 ، العدد12، (ديسمبر2017) EISSN : 2600-6405

إشكالية الأخلاق وجدلية المجتمع المتغيّر في عصر ملوك الطوائف خلال القرن 5هـ/11م

الأستاذ: سمير مزرعي أ.د بوباية عبد القادر
جامعة أحمد بن بلة - (وهران 1)

ملخص:

إنّ الأخلاق بالنسبة لمجتمع عصر ملوك الطوائف خلال القرن 5هـ/11م وبشكل بسيط هي امتداد لثقافة الإنسان العملية الّتي تصبغ عليه نوعا من إنسانيته، وبالتّالي فإنّها جزء من تاريخه البسيكولجي المتواراث عن طريق التّلقين والتّعليم، وكان من الأجدر أن يباشر أفراد المجتمع الأندلسي في خطوة سابقة؛ تعلّم أساليب التّربية بعد أن قطعوا شوطا في اكتساب مهارات التّواصل اللّغوي، ذلك يعنى أنّ جوانبا عظيمة من شخصياتهم تلقي بثقلها على نوعية ومستوى أخلاقهم وتربيتهم، وربّما تكون العناصر الخلقية إحدى الطّرق الّتي يمكن بها فهم عمرانهم البشري أكثر فأكثر، كونها تخضع في دورة لا متناهية لعقلية المجتمع وطبيعة إدراكه العقلي والفكري، وهذا ما يمكن أن نصطلح عليه بإشكالية الأخلاق وجدلية المجتمع المتغيّر.

Abstract:

The ethics to the society in the era of the kings of the sects during the 5 th century AH / 11 th century AD way is an extension of the human culture dyeing process of a kind of humanism, and therefore it is part of the historical Basic inheritance through the indoctrination and education, and it was in the best intrest of the Andalusian community in previous stepping-stone ; Learning the methodology of education after they have gone a long way in acquiring the skills of language communication, that means that great aspects of their personalities gained weight through the quality and level of ethics and education, and perhaps the moral elements are one way to explain their human existance more and more, being subject to an endless cycle of the mentality of the society and it's nature of mental and intellectual perception, and this is what we can call the problem of ethics and the changing society

مقدّمة:

إن جدلية المجتمع المتغير في الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس خلال القرن 5ه/11م، قد تستوقفنا أكثر لدراسة العمران البشري من ناحيته الأخلاقية والتربوية، إذ أن التغيرات والتبدلات الحادة التي تطرأ على أي مجتمع من شأنها أن تحدث نوعا من التأثيرات التي تستهدف بها عقل ونفسية الأفراد، وتغير لديه مجموعة من المفاهيم والجوانب النفسية والأخلاقية والعلمية والفكرية والجمالية، فمجتمع ملوك الطوائف كونه يمثل مرحلة إنتقالية في تاريخ الأندلس، لا يستبعد أن تكون قد صاحبته مجموعة من الظروف الإستثنائية، يمكن وعلى ضوئها دراسة تأثير السلطة والنظام السياسي على النظام الإجتماعي في شقيه التربوي والأخلاقي.

1- المجتمع بين القيم الرّوحية والمصلحة الماديّة: نعتقد بأن إشكالية الأخلاق لا تكاد تستهوي أفراد المجتمع الأندلسي البسيط، بقدر ما تستهويهم قوانين العادات والتقاليد والأعراف، إذ في الغالب أن عقولهم لا تستلطف قيما أخلاقية تفرض عليهم أنماط تربوية معينة ومحصورة بالأطر الاجتماعية التي يصنعها الفرد أو المجتمع، وبدل أن يخضعوا في تجمعاتهم البشرية إلى قوانين تربوية وأخلاقية من خلال رفعها إلى مستوى الممارسة الفعلية، نجدهم ينقادون نحو قيم إجتماعية أخرى مبنية على النظر في علاقاتهم البينية وكأن المجتمع هو من يصوغ القيم الأخلاقية، وبناء على هذا أو ذاك يمكننا تحديد سلوكيات الأفراد والمجتمعات، ذلك يعني أن إدراكهم لتلك الإشكالية قد يحتاج إلى مزيد من المعرفة وما تحويه من قيم فكرية وعقلية، سواء كان ذلك نتيجة انشغالهم بالأزمات الاجتماعية المتمخضة أساسا عن فتنة 399ه/1008م التي اجتاحت بظلالها القاتمة المجتمع الطائفي، بأن صرفت نظرهم بعيدا عن عالم الأخلاق والأفكار وحجبت عنهم جمالية السلوك التربوي، أو نتيجة تحجر أفكارهم المستنيرة بفعله اللاإرادي، نتيجة ما تفرضه عليهم الظروف الحتمية التي يولدها النظام السياسي الذي يكون الفرد عادة فاعلا فيه، وبذلك تصبح الأخلاق والتربية مجرد شعور لا يؤدي وظيفته، نراه يتحجر ويتصلب داخل وجدان أفراد المجتمع في إنجازات تميل إلى وصف نفسها بالهمجية أكثر مما تصدق عليها صفة الرذيلة، وعلى هذا الأساس نجد بأن ابن بسام قد أحسن التعبير عن ذلك الوضع الإجتماعي حين قال: "وانقلب أهلها من الإنسانية المتعارفة إلى العامية الصريحة، وفارقو الحرية"[1].

1 ابن بسام أبو الحسن علي، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1997، ق1، م1، ص67.

إن الأخلاق والقيم التربوية التي يخلفها التدين قد تضيع بين قوة التجاذب التي تمارسها ضغوط الحياة على الفرد والمجتمع، والتي تشده تارة إلى الـمُثل العليا والأخلاق السامية الدينية، وتارة إلى الحياة التي تمجد صفة الأنا، إذ لا نجدها تتجسد في صيغها الواقعية في مجتمع ينبذ تلك القيم، أو يعيش على وقع أسس ومحركات أخرى كمجتمع دول ملوك الطوائف كما يرى ذلك ابن حزم بقوله: "والله إنهم لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها، فنحن نراهم يستمدون النصارى فيمكنونهم من حرم المسلمين وأبنائهم ورجالهم، يحملونهم أسارى إلى بلادهم، وربما يحمونهم عن حريم الأرض وحسرهم معهم آمنين، وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعا فأخلوها من الإسلام وعمروها بالنواقيس، لعن الله جميعهم وسلط عليهم سيفا من سيوفه"[1].

إذ يصبح الفقيه والمحتسب كأداة روحية تميل إلى إخفاء تلك الإخفاقات التي يهوي فيها المجتمع نتيجة انحراف مساره التاريخي الأخلاقي والتربوي، وعجز الأفكار الدينية عن تأدية مهامها الوظيفية بصورة طبيعية، ليس لعقم أو لعجز التعاليم الدينية الإسلامية في الحفاظ على مقومات ومبادئ الأخلاق السامية، وإنما للتحجر المعرفي والفهم الخاطئ للتعاليم الدينية وجعله أكثر جمودا وتصلبا، إذ يكسر معه ذلك التوافق بين الفكر الديني والمصالح المادية بما يتماشى ويتلاقح مع طبيعة العمران البشري، وبذلك تخرج الأفكار الدينية عن مسارها الطبيعي، وتفقد قيمتها بين أفراد المجتمع الواحد، وقد صور لنا أبو الفضل بن محمد البغدادي ذلك الإنحلال الخلقي وضعف الوازع الديني وتدهور أحوال المجتمع، وفساد طبائعه في الأندلس خلال فترة حكم المأمون بن ذي النون، حيث يقول:"وكنت مررت ببلاد شموس الفضائل في آفاقها مكسوفة، وعيون العلم والآداب في عرصاتها مطروفة، وستائر الأحرار بين أهلها مهتوكة مكشوفة، وجنباتها بأنواع البلاء محفوفة، وقد نضبت في رباعها مياه الأمانة والأمان، ونبعت بين أهلها عيون الخيانة والبهتان، وضعف حبل الديانة فيهم والإيمان، فجنحوا إلى جحود النعم والكفران"[2].

فالجشع والطمع والخيانة والسرقة، هي رذائل تخلقها سلطة العنف التي تمثلها الطبقات الأرستقراطية بشقيها الروحي والسياسي من طرف الأمراء والفقهاء كما يصف ذلك ابن حيان بقوله:" فقد خص الله تعالى هذا القرن الذي نحن فيه من اعوجاج صنفين لدينا بما لا كفاية له ولا مخلص منه، فالأمراء القاسطون قد نكبوا بهم على وجه الطريق ذيادا عن الجماعة

1 ابن حزم أبو محمّد علي بن أحمد الأندلسي، رسائل بن حزم الأندلسي (رسالة نقط العروس في تواريخ الخلفاء)، تحقيق: إحسان عباس، المؤسّسة العربية للدّراسات والنّشر، بيروت، ط2، 1987، ج3، ص176.

2 ابن بسام، المصدر السابق، ق3، م1، ص411.

وجريا إلى الفرقة والفقهاء أئمتهم صموت عنهم "[1]، وتلك الرذائل والمفاسد الأخلاقية نراها تنمو شيئا فشيئا حتى تغدو ظاهرة اجتماعية متفشية بين أفراد المجتمع الواحد نتيجة القابلية التي تتملك عقل الفرد الفاسد، أو لنقل الذي يرى في الفساد الأخلاقي وسيلة وغاية يتعايش بها مع تيار الحياة الجارف الذي تكرسة بيئته الاجتماعية.

ونتيجة لطغيان عنف السلطة المستبدة، وتحول أنماط الملكية من المشاعية البدائية إلى الملكية الفردية، وفي ظل تنامي ظاهرة الإقطاع والاستعباد وما يصاحبها من استغلالات تقتضيها حاجات نمو مللكية الطبقة الأرستقراطية: من استنزاف لأموال المسلمين نتيجة المكوس والضرائب المفروضة عليهم[2]، أو نتيجة اللاعدالة في مبدإ تقسيم العمل الذي يدفع في أغلب الأوقات الفلاحين والعمال البسطاء والطبقة الفقيرة جهودهم في سبيل تحقيق مكاسب الملاك الكبار، إذ يخلق معها في كل مرة تستغل فيها تلك الملكات الفردية جشعا وطمعا وخيانة أعنف من ذي قبل، إذ يصبح معها المنظور الحسي للأفراد ينبع من جانب الحق والواجب، فتكتسي صفة رد الفعل الحتمي التي يجعل منها مظاهر وظواهر شرعية، وهنا يخلق تمجيد السلوك المنحرف كأداة للخروج من إشكالية التفاوت المتوحش، وتغيب معه صفة الإجتماع الذي تنشأ عنه المدنية وتخرجه من نظام الدولة إلى النظام القبلي السابق.

فالأخلاق والقيم التربوية لا تنتج في الأصل من تلقاء نفسها، ولم تخلق لإعطاء معاني ومفاهيم مجردة عن التغيرات التي تحدث داخل المجتمعات، وإلا كان معناها أخذ طابعا مجردا، لا يكاد الفرد يحس بالأسس الأخلاقية والمبادئ السامية في حياته اليومية ولايستشعرها البتة، ذلك يأخذنا إلى القول بأن المجتمع الاندلسي في عصر ملوك الطوائف قد تصدق عليه هذه السمات التي تتعارض مع فكره الديني المتشبع بالقيم الإسلامية التي تجعلها فوق كل اعتبار، وأن جدلية المجتمع المتغير ليست بالحق تخص الفئات النخبوية التي فقهت تلك التحولات الأخلاقية الهادمة لأسس مقومات المجتمع، ولكن الجدلية التي يجب أن نبحث فيها هي جدلية المجتمع بطابعه الشمولي الذي يغلب عليه الفكر العامي البسيط.

ووفق هذا المنظور فإن الأخلاق والقيم لم تكن في الأصل متجدرة الفهم والتطبيق في نفوس وعقول المجتمع، بل إن التربية تقف عند عتبات حدود الفهم؛ إن لم نقل عتبات مسامع

1 المصدر نفسه ص180/ محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس (دول الطّوائف منذ قيامها حتّى الفتح المرابطي)، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط4، 1997، ع2، ص421.

2 ابن حزم، المصدر السابق، ص ص173-176.

الفرد، أو يترك تلك الأخلاق والقيم عند عتبات باب المسجد كما يقول مالك بن نبي[1] نتيجة للخطابات الدينية والفقهية التي تلقى مرارا وتكرارا على مسامع المجتمع، والتي لاتصل إلى حدود إدراك الأفراد بسبب الرؤية المحدودة لقيمة الأخلاق ودورها في تأسيس المجتمع والحضارة بصفة عامة، وعلى هذا الأساس يمكن القول وفي لمحة خاطفة أن فلسفة الأخلاق لم تكن تعنى بكثير من الإهتمام لدرجة التخلف والانحدار المعرفي الذي أصاب هيكل عقل المجتمع الأندلسي بصفة شمولية، ولم يتمكن من إعطاء تلك الفلسفة حقها أو أن يقدر مفهومها الدلالي الذي وضعت لأجله، فالقيم الأخلاقية لا يمكن استيعابها بدرجة ضعيفة من الوعي والتبصر، أو عدم اكتساب جمالية الذوق التي تطبع تلك العلاقة بين فلسفة الأخلاق وفلسفة الجمال لأن الأخلاق في ظاهرها قد تنبع من جمالية المعتقد العرفي والديني والإجتماعي.

وحتى نكون أكثر إنصافا ينبغي علينا أن نقول بأنه لم يعرف أو لم يكن في مقدوره أن يخلق ذلك التوافق بين القيم التربوية مثلا والحياة الاجتماعية العملية، ويجعلها كواقع يفسح له المجال لإثبات ذلك النمط المعين والراقي من المستوى المعيشي الذي يقوم على أسس أخلاقية، أو دمجها مثلا في الجوانب الاقتصادية، بحيث أنها تجعله شديد الحرص على العمل وفق الطرق التربوية الأخلاقية المشروعة التي تنبذ كل ما من شأنه أن يكون لاأخلاقيا أو لا ينبع من أصول تربوية، ولا يمكن أن نكون موضوعيين في الطرح إذا ما تناولنا هذا الجانب بدون استقراء الظواهر الاجتماعية والاقتصادية وربطها ببعضها البعض، أو أن نغض الطرف عن المجتمع البسيط، كونه من ساعد في حقيقة الأمر على تفشي مثل هذه الظواهر الخطيرة، إذ ما انفك الفلاح أو العامل من الطبقة الفقيرة يتجاهل بوعي منه أو غير وعي الحلال والحرام إذا ما تعلق الأمر بكيفية تحصيل القوت والثروة .

هذا ما يحاول ابن حزم جاهدا أن يوضحه بقوله:"وليس على الناس أن يتجنوا على أصول ما يحتاجون إليه في أقواتهم ومكاسبهم، إذا كان الأغلب هو الحلال وكان الحرام مغمورا، وأما في زماننا هذا وبلادنا هذه فإنما هو باب أغلق عينيك واضرب بيديك، ولك ما تخرجه إما ثمرة وإما جمرة"[2]، أو من قوله:"وبرهان ذلك أني لا أعلم ولا غيري بالأندلس درهما حلالا، ولا دينارا طيبا يقطع على أنه حلال، حاش ما يستخرج من وادي لاردة من ذهب"[3]، فبعد

1 محمد بغداد باي، التربية والحضارة (بحث في مفهوم التربية وطبيعة علاقتها بالحضارة في تصور مالك بن نبي)،عالم الأفكار للنشر والتوزيع، الجزائر، ط3، 2007، ص85.

2 ابن حزم، المصدر السابق، ص176/ محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص422.

3 المصدر نفسه، ص174.

انهيار تلك المعايير الأخلاقية التي لاتستقيم الحياة الاجتماعية والاقتصادية بدونها، اختار مجتمع ملوك الطوائف لنفسه مجموعة من التبريرات التي تؤهله لممارسة ما يؤمن به، وما يراه صائبا في كيفية مسايرة ذلك الانحلال الذي أصاب بدنه المرهف، فانهارت كما يرى محمد عبد الله عنان مبادئ الوسائل، وحلت محلها مبادئ الغايات في كيفية تحصيل الكسب والثروة[1]، وفي هذه الحالة لم تصبح الغاية تُحدد أخلاقيا ولا تربويا حسب عقائده وعاداته، بل أصبحت تُحدد بالحاجة والضرورة التي يرى فيها منفعته الخاصة دون المجتمع ككل.

فالمبادئ والعادات والتقاليد تتشابه أيما تشابه إذا ما قُرنت بالقوانين الاقتصادية التي تستوجب على الفرد ابتكار طرق وآليات تستجيب لها لتلك المثيرات والتحديات، إذ يكون التحدي واحدا من العوامل التي تحتم على الأفراد إشاعة الطرق غير المشروعة في اكتساب الثروة، بل يجد نفسه منساقا انسياقا لا شعوريا وراء حاجاته وغاياته، وعلى هذا الأساس نرى بأن كتب الحسبة قد زخرت بكثر من المسائل والقضايا في محاولة جاهدة منها لمحاربة تلك البيوع غير الشرعية[2] "ومراقبة الباعة والتجار والصناع وأرباب الحرف والسيطرة على أعمالهم كمنع الغش التجاري وتفقد أموالهم وإصلاح أحوالهم وحل مشكلاتهم"[3] التي نتجت بالأساس عن غياب الأخلاق الاجتماعية والاقتصادية، إذ تصدت للحشاشين والمنتحلين لذوات السموم باختلاف أنواعها[4]، وكان على المحتسب تفقد ومراقبة الخياطين والصباغين والدباغين والنشارين[5]والعطارين والكتانين والخبازين واللبانين والجزارين[6] غيرها من الحرف والصناعات وباقي المعاملات التجارية.

من هنا نرى بأن التغير المطرد الذي يصيب جزءً من جوانب الفرد الاجتماعية، قد يساهم مساهمة استثنائية في إحلال عادات وتقاليد وأعراف مكان القوانين والشرائع التي تحدثها السلطة، وفي غياب تلك القوانين التي تهذب أكثر من عدوانية الأفراد إزاء بعضهم البعض

1 محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص421.

2 ابن عبد الرّؤوف، في آدب الحسبة والمحتسب ضمن (ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب)، نشر ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1955، ص ص84-85.

3 عبير زكرياء سليمان بيومي، دور الفقهاء السياسي والحضاري في الأندلس في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي دار العلم للملايين، بيروت، 2009، ص326.

4 الجرسيفي عمر بن عثمان بن عباس، رسالة في الحسبة ضمن (ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب)، نشر ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1955، ص123.

5 السقطي أبو عبد الله محمّد، في آداب الحسبة، تقديم: ليفي بروفنسال، ج.س كولان، مكتبة آرنست ليروكس، باريس، (د-ت)، ص ص62-65.

6 ابن عبد الرؤوف، المصدر السابق، ص ص87-93.

فإن تلك المعاملات تكون ضربا من ضروب السلوك المستحدث الذي يتجاوب وأنماط العيش الآنية والظرفية والتي تكسبه نوعا من أحقية الإبداع والممارسة، ومع تغيير هذه الطرق والكيفيات في كيفية تحصيل المادة تنجلي عن الأعين والملكات الحسية والوجدانية مفاهيم كانت في وقت قريب تمثل قمة المعاني السامية والأخلاقية، وتعمل عمل التشريعات الربانية التي تنظم حياة الأفراد بغير وازع السلطة، ونقصد بهذه المبادئ السامية الحلال والحرام، فالحاجة المادية وتنوع المكاسب المالية المستحدثة من الإنسان الوحشي الجشع الذي يجعل المصلحة المادية والملكية الخاصة في مقدمة مطالبه الشخصية على حساب المجتمع، خلقت مفاهيم أخرى تؤمن بالمنفعة الشخصية في إطارها الضيق الذي يعود بالنفع على الفرد بعينه دون غيره وفق نظام اجتماعي متغير ينقله من الاجتماع إلى الفردانية السلبية.

ووفق ما يورده ابن بسام من خلال رسالة أبي المغيرة[1] بقوله:"في الإحتماء حسم الداء، ولا عدو للإنسان إلا نفسه، ولا حية ولا عقرب إلا جنسه، وليس في الحيوان أخبث في ذاته من الإنسان، فالاحتراس كل الاحتراس، والمعاشرة الجميلة للناس، فأبصر بصيرتك، وأحسن سريرتك، ولا تلدغن من جحر مرتين"[2]، فإن الانعزال والتفكير بالذات نتيجة انتشار مظاهر النفاق والغدر والخيانة هو ما سبب ذلك التغير الحاد الذي أصاب المجتمع الأندلسي في فترة ملوك الطوائف خلال القرن 5ه/11م[3] وهذا التأثير قد يتناسب مقداره مع مقدار ما يولده الأفراد من أفكار فردانية تؤدي بهم إلى هدم عصبيتهم التي هي أساس ذلك المجتمع المتنامي، إذ تجرد العصبية وفق منظرهم العام البسيط من كل فعل أخلاقي وتربوي، وتصبح مجرد أداة إسمية لا وظيفية تفقد معناها كلما عز في نفوسهم تمجيد ذواتهم، وذلك العمران البشري قد يفنى إذا ما سبح في تيار القابلية الجماعية لتلك الأفكار، وسمح لأفراده أن يقفوا نفس المواقف من بعضهم البعض، أو يتسترون بستار فساد السلطة السياسية كحجة

1 هو عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمان بن سعيد بن حزم أبو المغيرة، نجهل تاريخ ولادته كان من المقدمين في الشعر والبلاغة وهو ابن عم الفقيه أبي محمد بن حزم، توفي حوالي 420ه. ابن بسام، المصدر السابق، ق1، م1، ص ص132-133/ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1955، ج1، ص357/ الحميدي أبو عبد الله محمّد، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، تحقيق بشّار عوّاد معروف، محمّد بشّار عوّاد، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 2008.، ص ص421-422.

2 ابن بسام، المصدر نفسه، ص153.

3 فايز عبد النبي فلاح القيسي، أدب الرسائل في القرن الخامس الهجري، دار البشير، عمان، ط1، 1989، ص ص167-168.

ثابتة ومسؤولة عن إحداث تلك الاختلالات، أو اتخاذها كتبرير لجدلية المجتمع المتغير في تلك الفترة.

2- المجتمع والقيم التربوية: إن العادة في اكتساب المبائ الأخلاقية والقيم السامية لَتنتج عن التأثيرات السلوكية التي يمارسها الإنسان على غيره، أو نتيجة التراث العقلي والخلقي الذي يخلفه المجتمع عن طريق التراكم المعرفي والأخلاقي، وكل هذا يدخل ضمن إطار مفهوم التربية، إذ يكون تلقينها على شكل تعاليم وإرشادات وممارسات وعقائد دينية ووضعية، ليحولها التطبع الإنساني إلى عادات ومبادئ سامية ومثلٍ عليا عن طريق الممارسة الحياتية اليومية؛ فالتربية باعتبارها أساسا من الأسس الحضارية لا تنحصر في معنى واحد من معاني تشكل المجتمع، إذ أن الأسرة كونها نواة العمران البشري قد تتحمل عبءً كبيرا في ممارسة ذلك التلقين، وقد يكون الفشل في أداء تلك المهام إيذانا بفشل المشروع التربوي والأخلاقي كلية، ثم إن التربية باعتبارها وسيلة لإعداد العقل لتلقي المزيد من التعليم والمبادئ الأخلاقية لم تكن متوقفة على دور الأم أو الأسرة فقط إذا ما حاولنا الرجوع بطرق تلقين تلك المبادئ إلى عصر متقدم لفترة ملوك الطوائف.

فالفاتحون كانوا أهلا لتلقين تلك المبادئ واللغة، وبما أن اللغة تسكن الفكر فإن تراث اللغة العربية وما تعلق بها من المبادئ الاسلامية، قد يعهد مسؤولية نقله لأولئك المربين والفقهاء القادمين من المشرق نتيجة ضعف النساء الإسبانيات في ميدان نقل التراث الإسلامي لحداثة استعرابهن وإسلامهن[1]، غير أن حياة المجتمع الأندلسي كما يبدو تأثرت بملامح الحضارة التي أقبلوا عليها، وبدل أن يأخذ ذلك التأثير طابعا إيجابيا خصوصا في ما يتعلق بأساليب التربية والتعليم، نجده لا يقوى على تحرير نفسه من قيود التعايش الحضاري الذي يحتم عليه أن يجدد نفسه كلما أراد الرجوع والعودة إلى سالف عهده، غير أن ذلك التجديد لا يخلو بالمرة من بعض العناصر التي تتعارض مع ثقافته الإسلامية، هذا إذا تكلمنا من المنظور الديني الذي يحوي الفكر الاجتماعي الأندلسي، ولكن تلك القيم الحضارية الصادمة لا تلقي بالا ولا اعتبارا لتلك المقومات، وهذا يعني من الناحية الحضارية بأن المجتمع الأندلسي ابتكر لنفسه طرقا جديدة للتربية والتعليم، ومجمل تلك الطرق والكيفيات التي مورست بها لم تكن محددة بطرق إرادية وعن طواعية منه.

1 محمد عبد الحميد عيسى، المرحلة الأندلسية: مرحلة التكوين، ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط، تحرير قاسم عبده قاسم، رأفت عبد الحميد، دار المعارف، القاهرة، 1983، م12، ص290.

لقد فرضت الظروف التي مرت بها الأندلس خلال القرن 5ه/11م على المجتمع نمطا محددا يتماشى ولغة ذلك الوضع الاجتماعي المستحدث الذي ما فتئ يزداد تعقيدا وتأزما بوتيرة يقل معها النشء الذي يحمل على عاتقه ممارسة مهمة التربية والتعليم، وحتى ذلك الانحدار للمجهول الذي يسير فيه المجتمع قد لا يتعارض في كثير من المرات؛ بل يتوافق بتكامل شمولي مع أزمة الأخلاق والتربية نتيجة نقص المؤدبين المرتبط أساسا بالتصفيات الجسدية المصاحبة لموجة الفتنة الأندلسية سنة 399ه/1008م، وكساد الناحية التعليمية للصبيان وعامة المجتمع[1]، غير أن إشكالية الأخلاق لا تتمحور في سبب أو مسبب واحد مثلما قد يعتقد البعض، فالمجتمع غالبا ما يقع في رهانات مآلها الفشل والزوال إذا ما رفع تحدي التحضر والمدنية وربطه بالتقدم المادي أو الثراء، ناسيا أو متناسيا عن قصد إشكالية الأخلاق السامية والمبادئ، ولعل المجتمع الأندلسي خلال القرن 5ه/11م قد انتابه نوع من الفضول ليتجرع مرارة ذلك التحدي، فحبه العارم لحياة التملك والجشع الذي صاحب تطور الحياة المدنية، جعله يبتكر أساليب خلاقة لإبراز ذلك التقدم الذي لم يكن إرتباطه بالحياة الفكرية والأخلاقية بالمرة، وإنما أغلق على نفسه في دائرة يرى فيها أن الجنس محرك للتاريخ.

وعلى ضوء هذه القراءة أخذت مهمة الطبقات الأرستقراطية في تعليم الجواري فنون الشعر والتربية والرقص ومعظم الفنون الأخرى، فابن الكتاني[2] مثلا يصف في رقعة تعليمه القيان يقول فيها:"واعتبر ذلك بأن في ملكي الآن أربع روميات كن بالأمس جاهلات، وهن الآن عالمات حكيمات منطقيات فلسفيات هندسيات موسيقاويات أسطرلابيات معدلات نجوميات نحويات عروضيات أدبيات خطاطيات"[3]، غير أن تعلمهن لم يكن يستند إلى أسس تربوية وإلى فلسفة أخلاقية تعالج بهما ذلك الإنحراف الأخلاقي نتيجة ظاهرة اقتناء القيان والجواري التي طغت على حياة المجتمع الأندلسي، وليس رغبة في تثقيفهن ومد يد العون

1 أنور محمدو زناتي، المجتمع الأندلسي في القرن الرابع الهجري من خلال شهادة مؤرخ معاصر (إبن حيان القرطبي)، مجلة المؤرخ، جمعية ليون الإفريقي، ع4، يونيو يوليو غشت 2009، ص18.

2 هو محمد بن الحسن أبو عبد الله المذحجي، يعرف بابن الكتاني نجهل تاريخ ولادته ووفاته، عرف بنباغته في الأدب والشعر، وتقدمه في علوم الطب والمنطق. ابن بسام، المصدر السابق، ق3، م1، ص320/ الضبي، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق: إبرهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1989، ج1، ص94/ ابن صاعد الأندلسي أبي القاسم صاعد بن أحمد، طبقات الأمم، نشر لويس شيخو اليوسوعي، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، 1912، ص82.

3 ابن بسام، المصدر نفسه، ص320.

لاسترجاع حريتهن وتخليصهن من حياة العبودية التي كن فيها، بل إن أثمانهن زاد نتيجة تجارة العبيد والجواري الذي اشتهرت به الأندلس خلال القرن 5ه/11م.

فالمجتمع الأندلسي لم يكن يدرك بأن الثراء الفاحش وحياة اللهو والبدخ ستقوده إلى ولوج حياة قوامها التكلف والتصنع على حساب مجموعة من العادات والتقاليد كان يحياها في وقت قريب بعفوية وبطرق تقليدية، فعوض تشارك الأب والأم في أداء مهامهما التربوية تطلبت حياة المدنية إخضاع ذلك الدور إلى جواري ومربيات كن في الأصل يجهلن طرق التأديب والتربية، بل إنهن لم يكن يحملن مقومات وأخلاق الحضارة العربية الإسلامية، إذ كانت الجواري المتعلمات تستهوي الطبقات الغنية الأرستقراطية، حتى بلغ سعر الجارية الواحدة ثلاثة آلاف دينار[1] حسب ثقافتها وجمالها وبراعتها في الأدب والخط والكتابة والغناء. فبعد فقدان نسائهن مهارات وطرق التربية بسب "انشغالهن بحياة الحب الذي يوجه مشاعرها وعواطفها وسلوكها"[2]، والغزل الذي تستدعيه الحياة المترفة المنعمة وما كانت تحيا فيه معظم النساء الحرائر وفقا لما يورده ابن حزم بقوله:"وإنك لترى المرأة المسنة المنقطعة الرجاء من الرجال وأحب أعمالها إليها وأرجاها للقبول عندها سعيها في تزويج يتيمة، وإعارة ثيابها وحليها لعروس مقلة وما أعلم علة تمكن هذا الطبع من النساء إلا أنهن متفرغات البال من كل شيء إلا من الجماع ودواعيه والغزل وأسبابه، والتآلف ووجوهه، لا شغل لهن غيره، ولا خلقن لسواه"[3]، كانت تلك الجواري والحاضنات والمربيات تتحمل مسؤولية تربية الأولاد[4]، وقد تترك هذه الطرق المستحدثة في التربية آثارا جانبية سلبية على نفسية وشخصية الطفل[5]، إذ من شأن نص ابن الكتاني الذي أوردناه سابقا أن يطلعنا على حقيقة تاريخية، هي أن الجاريات التي كان يعهد لهن بالتربية والتعليم أغلبهن روميات غير

1 ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ، تحقيق: ج.س كولان، ليفي برونفنسال، دار الثّقافة، بيروت لبنان، ط3، 1983،ج3، ص308/ ابن بسام ، المصدر نفسه، ص112

2 صلاح خالص، إشبيلية في القرن الخامس الهجري (دراسة أدبية تاريخية لنشوء دولة بني عباد في إشبيلية وتطوّر الحياة الأدبية فيها 414-461ه، دار الثقافة، بيروت، 1981، ص94.

3 ابن حزم، المصدر السابق، ج1، ص165/ ابن حزم أبو محمد علي بن أحمد الأندلسي، طوق الحمامة في الألفة والآلاّف، مكتبة عرفة، دمشق، (د-ط)، ، ص ص68-69.

4 فايز عبد النبي فلاح القيسي، المرجع السابق، ص ص، 37-39/ خميسي بولعراس، الحياة الإجتماعية والثّقافية للأندلس في عصر ملوك الطّوائف 400-479ه/1009-1086م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلّية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التّاريخ، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 1427-1428ه/2006-2007م، ص74/ أحمد بن صالح السحيباني، ضعف القيم الأخلاقية في عصر ملوك الطوائف بالأندلس، مجلة المؤرخ العربي، إتحاد المؤلفين العرب، م1، ع6، القاهرة، مارس1998، ص375.

5 خميسي بولعراس، المرجع السابق، ص74.

عربيات ولا مسلمات، فالتربية إذن وفق هذا المنظور قد تؤدي عكس وظيفتها إذا ما ربطناها بذلك الكم المعقد من العادات والتقاليد والأفكار وأنماط التربية والأخلاق واللغة التي تحتويها الحضارة العربية الإسلامية.

وما من شك بأن القرن 5ه/11م تميز بضروب تلك الأساليب التربوية التي تنشأ عادة عن الثقافة الموسوعية التي تمتعت بها الجواري، والتي لا تدع حدودا فاصلة بين مختلف العلوم والفنون، بما فيها عادات وأنماط تربوية لا تعترف بها القيم الإسلامية والحضارة العربية بصفة عامة، هذا ما يجعل الفكر الأخلاقي والتربوي للفرد الأندلسي يأخذ طابعا أندلسيا ميالا إلى الحضارة الغربية الاسبانية أكثر مما يميل إلى حضارته الأم، وعلى هذا الأساس يُعتقد بأن ذلك النمط التربوي ترك "روحا إنهزامية تميل إلى اتخاذ حياة اللهو والترف والمجون كتبرير"[1] للتحضر والانحلال الخلقي وتفكك الروابط الاجتماعية كتبرير ثاني للحرية والاستقلالية، وما يمكن أن نقوله عن الطبقات الغنية والأرستقراطية لا يأخذ طابعا شموليا كما لا ينطبق بصفة كلية على باقي الطبقات الفقيرة والمتوسطة، فابن حزم مثلا تربى في كنف الجواري والمربيات، ونجد أن تعليمه أخذ منحى مغايرا يتنافى مع ما أوردناه سابقا إذ يقول:" ولقد شاهدت النساءَ وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيري، لأني رُبيت في حجورهن، ونشأت بين أيدهن، ولم أعرف غيرهن ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب وحين تقبل وجهي، وهن علمنني القرآن ورَوَّينني كثيرا من الأشعار ودربنني في الخط، ولم يكن وكدي وإعمال ذهني منذ أول فهمي وأنا في سن الطفولة جدا إلا تعرف أسبابهن، والبحث عن أخبارهن وتحصيل ذلك"[2].

وباعتبار أن التربية صاحبت نمو الوعي الفكري للإنسان منذ وجوده، إذ كانت دائما أداة تحفيزية لنقله من مستوى إلى مستوى أرقى، فإن العائلة أو الأسرة هي من ساهمت في حفظ ذلك التراث،مهما بلغ تقدم وتطور المجتمعات، ذلك يعني أنه حتى عامة المجتمع في عصر ملوك الطوائف خلال القرن 5ه/11م ظلت تمارس تلك القيم الحضارية بطرق تقليدية، فالثراء الفاحش وحياة التصنع والتكلف التي لم تنعم بها دفعتها للمضي قُدماً إلى الحفاظ على دور الأسرة وازدواجية التربية، حيث أن "تربية الأطفال عند العامة كانت مسؤولية مشتركة بين الرجل والمرأة"[3]؛ فالأسرة الأبوية كما يعتقد بعض الباحثين لم تحد من

1 عمر إبراهيم توفيق، صورة المجتمع الأندلسي في القرن الخامس للهجرة سياسيا واجتماعيا وثقافيا، درا غيداء للنّشر والتّوزيع، الأردن، ط1، 2001، ص117.

2 ابن حزم، رسائل بن حزم، ج1، ص166/ ابن حزم، طوق الحمامة، ص69.

3 خميسي بولعراس، المرجع السابق، ص74.

مسؤولية المرأة الأندلسية[1]، أو أنها غيبت دورها كمربية أو كعاملة، بل إن الحاجة ومتطلبات الحياة هي ما ساهم في خلق ذلك التعدد في المهام والواجبات، فبالإضافة إلى ممارسة مهامها كمربية داخل الأسرة نجدها تقاسم الرجال أعمالهم بالعمل داخل وخارج المنزل، فنجد مثلا أن أم أبي بكر محمد بن عيسى الداني المعروف "بابن اللبانة"[2] إضافة إلى دورها التربوي مارست مهنة بيع اللبن، فكانت:"مشتغلة ببيع لبنها، مقبلة على ما يعنيها من حال زمانها، حتى غلب إسم اللبن عليها، ونسب أولادها به إليها"[3].

فجدلية المجتمع المتغير لا يمكن أن تدرس أو تحدد إذا ما استثنينا منها التركيز على الجانب التربوي الذي تؤديه المرأة العامية، كونها ظلت محافظة على تلك الممارسات السلوكية والفكر التربوي، ومع كونه فكرا أكثر مما هو تراث يلقن للفرد، فبودنا أن نعتبر مهمة نقل معالم الحضارة الأخلاقية والتربوية من ضمن المخلفات الأكثر تأثيرا في تاريخ الأندلس خلال القرن 5ه/11م، إذ بدونها لا يمكن تحديد تحضر أو تخلف المجتمع، أو أن نحكم عليه أحكاما تجعلنا نفقد أثمن الوظائف الرئيسة للتنظيم الإجتماعي – ونقصد بها دور المرأة والأسرة- فالفرخ الذي تقصد به الأمثال العربية "الطفل"[4] يُحدد نسبه إن كان "فرخ حرام" أو "فرخ حلال" بناءً على تحديد انتمائه الأسري والعائلي، الذي يتشارك فيه كل من الأب والأم، كما أن التنشئة السليمة التي تؤديها وظيفة التربية هي ما سيحدد أخلاقه وطبيعته الأخلاقية والسلوكية داخل المجتمع[5].

1 لقد أنكرت ماريا ج.فيغيرا ما كان يعتقده بعض الباحثن بقولهم:" كان دور النساء في العصر الوسيط مقصورا، في الحقيقة، على الدور المناط بهن في إطار العائلة، العائلة التي تقع في قلب المجتمع بالطبع، والتي كما يشير كاهن (cahen) كان يحكمها الرجال، فقد كانت العائلة الأندلسية التقليدية عائلة أبوية بصورة جوهرية، أو بشكل أكثر دقة، يحكمها الأب". ماريا ج.فيغيرا، أصلح للمعالي عن المنزلة الإجتماعية لنساء الأندلس ضمن كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير: سلمى الخضراء الجيوسي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1998، ج2، ص1007.

2 إبن اللبانة: هو أبو بكر بن عيسى محمد بن عيسى بن محمد اللخمي الداني، نجهل تاريخ ولادته،كنيته ابن اللبانة كناية عن أمه التي كانت تبيع اللبن، كان من شعراء المعتمد بن عباد. ابن اللبانة أبو بكر الداني، ديوان ابن اللبانة الداني (مجموع شعره)، تحقيق محمد مجيد السعيد، دار الراية للنشرو التوزيع، عمان، ط2، 2008، ص9/ ابن خاقان بن عبد الله القيسي الإشبيلي، قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، تحقيق حسين يوسف خريوش، مكتبة المنار، الأردن ط1، 1989، ج1، ص ص776-790/ ابن سعيد، المصدر السابق، ج2، ص ص409-416.

3 ابن بسام، المصدر السابق، ق3، م2، ص ص666-667.

4 عبد العزيز الأهواني، على هامش ديوان إبن قزمان، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، م18، مدريد، 1974-1975، ص20.

5 نجلاء سامي النبراوي، جوانب من الحياة الإجتماعية والاقتصادية للطفل بالأندلس (ق4-10ه/10-16م)، إهداءات شبكة الألوكة، (د-ت)، ص3/ عبد العزيز الأهواني، المرجع نفسه، ص ص20-21.

وقد تكون مهمة نقل التراث الحضاري المتعلق بالقيم الأخلاقية والمبادئ السامية حكرا على المرأة العامية دون غيرها من نساء الطبقات الأخرى، لأنهن في الأصل لم يكن يتمتعن بذلك القدر الكافي من المسؤولية، أو إن شئنا أن نقول انشغلن "بأمور تتجاوب ونمط العيش الرغيد التي كانت تحياه الطبقات الأرستقراطية والغنية"[1]، والأمثال الشعبية المتداولة بين عامة المجتمع خلال القرن 5ه/11م من شأنها أن تخلق نمطا تربويا وفكرا جماعيا يديم بقاء الأفراد على تلك القيم التربوية والسلوكية، وتهيؤهم أكثر لتعميمها ونقلها إلى الوسط الاجتماعي، فمثلا تقول إحدى الأمثال الشعبية: "ولد بلا لقم، بحال خبز بلا رشم" ويقول مثل آخر: " من ربا صغير ما يندم"[2].

وإذا تكلمنا عن تلك الأمثال في هذا السياق، فإنه لا يمكن ها هنا أن يخالجها نمط تربوي أو فكر مشاع قد تعمل الطبقات الحاكمة على فرضه أو تعميمه لاختلاف حاجات التربية ووسائلها وغايتها بإعتبار أن "التربية التي ينشأ عليها الفرد الأرستقراطي تكون في بلاط الحكام والأمراء، وذات توجيه سلطوي غرضه الوصول إلى العرش"[3]، ولكن الأسرة البسيطة هي من تعمل على تعميم تلك الأمثال كنمط تربوي بسيط تهيئ الفرد من خلاله للتكيف أكثر مع المجتمع الذي سيعيش داخله، ثم إن التربية وفق هذا المنظور لَتكونُ أكثر تعلقا بالقيم الحضارية التي سينشئها الفرد فيما بعد، إذ يكون ذلك السلوك تعبيرا عن شخصية ومكنون الأفراد التي تنشأ بها الحضارة العربية الإسلامية، فالتربية والقيم الأخلاقية السامية التي تكون من نتاج المجتمع البسيط؛ إذ يتقرر من خلالها مطلب الحفاظ على النسل والتنظيم الإجتماعي هي ما يجب أن نسميها حقا التربية والأخلاق.

غير أن ما يقابل تلك الأمثال الشعبية من متناقضات تشتمل على مجموعة من العادات والتقاليد المبتدعة قد تبث ثقافة أكثر إنفصالا عن شخصية الأفراد ومعتقداتهم البسيطة، غالبا ما نجهل مبررات استحداثها، أو أنها تتولد في أغلب الظروف من أرحام الإخفاق التربوي كمحاولة استثنائية لتغطية ذلك النقص والفشل، ذلك يعني أن التربية بِوصفٍ نِسبي أصبحت تُعزى إلى النساء النوبيات كونهن "أحسن الربايات لأنهن عندهن رحمة وحنينا

1 أحمد بن عبود، التّاريخ السّياسي والإجتماعي لإشبيلية في عهد الطّوائف، مطابع الشويخ، تطوان، 1983، ص192.

2 أبي يحي عبيد الله بن أحمد الزجالي، أمثال العوام في الأندلس مستخرجة من كتابه (ري الأوام ومرعى السوام في نكت الخواص والعوام)، ، تحقيق محمد بن شريفة، منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، فاس، يوليو 1975، ق1، ص233.

3 أمحمد بن عبود، المرجع السابق، ص193.

للأطفال"[1]، غير أن هذه الإستثناءات لا نراها تتحول إلى أسس ثابتة تستقر تحت الظواهر الاجتماعية، أو أنها أصبحت قانونا اجتماعيا يحتفي به معظم عوام المجتمع الأندلسي، وإنما شكلت في معظمها بالنسبة لهم أنماط عيش استثنائية استجابة للمثيرات الخارجية، والتي تخرج في العادة عن مقدرتهم المعرفية، وجهل كيفية معالجتها معالجة سلوكية تربوية.

ولكن حتى في وجود هذا التراث الذي يلتصق بالفرد كلما فكر بإنسانيته وطبعه المدني قد يتوه وهو يترنح بين أفراد مجتمعه بين الإمساك عن تضييع تلك المثل العليا، أو أنه يهوي في قاع التردي الأخلاقي الناجم عن تأثير الجماعة والانقياد للآخرين، ونتيجة لتلك التغيرات التي أصابت المجتمع الأندلسي في عصر ملوك الطوائف خلال القرن 5هـ/11م فإن المثيرات التي تنجم عنها هي ما سيخلق استجابات قد تصيب النظام السلوكي والأخلاقي للفرد، حيث يُخلق معها نوع من الفراغ الإجتماعي يخرج عادة عن حدود معرفة ووعي الأفراد، الأمر الذي جعلهم يفقدون مبررات وجودهم الحقيقي، فاتجه المجتمع بصفة شمولية إلى "مستنقعات الرذيلة وحياة الترف والبذخ نتيجة الضعف المعنوي كمخلص لهم من ذلك الوضع المتأزم"[2].

3- الجنس بصفته محركا للتاريخ: قد يكون أول ما يتهاوى في ظل ذلك الإنحلال الأخلاقي الأسرة باعتبارها نواة النظام الإجتماعي، إذ تحتم عليها مجموعة من الظروف أن تلغي الكثير من مهامها، فتلك التأثيرات التي تخلفها وتلقنها بمختلف الطرق للفرد سرعان ما تنفض مع أول تحرك عكسي يُقدم عليه أفراد المجتمع خصوصا إذا تعلق الأمر بإثارة بعض الغرائز التي لازمت وجدان وعواطف الإنسان -ونقصد ها هنا الحياة الجنسية ومتطلباتها-، فالمشاكل التي حاولت كتب الفقه والنوازل معالجتها تجعلنا ندرك مدى التأثير السلبي الذي خلفه اختلال التنظيم الأسري الناتج عن مشاكل الحياة الجنسية التي عادة ما تمتاز بالشذوذ، والزواج غير المنظم الذي يجعل الحياة الأسرية معلولة تنافي النمط الاجتماعي وتجافي الأخلاق الحضارية، وفي هذا يقول ابن حزم:" وإن في الزنا من إباحة الحريم، وإفساد النسل، والتفريق بين الأزواج الذي عظم الله أمره، ما لا يهون على ذي عقل، أو من له خلاق"[3].

ومع كل ضروب ذلك النمو غير الاعتيادي للأسرة البسيطة تحل محلها أنماط إجتماعية بدائية أكثر مما هي حضارية، وبعد أن كانت حياة الأفراد تُعنى بتلك الهالة والقدسية التي

1 السقطي، المصدر السابق، ص53.

2 أحمد بن صالح السحيباني، الضعف المعنوي وأثره في سقوط الأمم (عصر ملوك الطوائف في الأندلس أنموذجا) دراسة تاريخية تحليلية، مجلة البيان، الرياض، ط1، 2002، ص157.

3 ابن حزم، طوق الحمامة، ص163.

غالبا ما نجد كتب النوازل والفتاوى الفقهية تحرص أيما حرص على حفظها وتقنينها - كالنازلة التي عالجت موضوع نكاح متعة وقعت في مدينة بطليوس-[1] نجدها تقل شيئا فشيئا حتى تصير مسائل اعتيادية تعهدها الحياة اليومية لمجتمع عصر ملوك الطوائف خلال القرن5ه/11م، إذ أن الحياة الجنسية غير المنظمة، والتي تنتج عادة عن الإدارك الحسي الخاطئ لطبيعة العلاقات العاطفية بين الجنسين هي ما ستقود المجتمع وفي خطوة غير إعتيادية إلى هدم أكبر مثير مادي ومعنوي في تأسيس العمران البشري، ألا وهو تنظيم النسل وتنشئته تنشئة اجتماعية تتجاوب مع ذلك الكم المعقد من القيم الحضارية الإسلامية.

غير أنه وفي غياب تلك الأسس التي لاينفك الفرد يدفع بها إلى الزوال، فإن تأثيرا بالغ القوة سيؤثر أيما تأثير على وحدة الأسرة واحتضان الجيل الناشئ، إذ أن هناك دلالات تاريخية خلال القرن 5ه/11م تشير إلى مثل تلك الظواهر السلبية، فإبن الجزيري[2] مثلا "رضي بإهمال داره وإباحة حريمه والتعريض بأهله، طمعا في الحصول على بغيته من فتى كان علقه"[3]، وهناك شخصية أخرى لم يعرف بها ابن حزم ينطبق عليها نفس المثال "فسقط من عيون الناس كلهم بعد أن كان مقصد للعلماء، ومنتابا للفضلاء، ورذل عن إخوانه جملة"[4]. فالأحوال المادية المزرية وما طرأ على العلاقات الأسرية من تفكك ينبئ بذلك التشرذم الإجتماعي نتيجة إنقسام المجتمع ككتلة إلى دويلات طائفية جعلت أفراد المجتمع يستنكفون مباشرة العلاقات الجنسية الشرعية التي تخضع لمجموعة من الشروط، بل يجدها تحد من حريته أكثر كلما ازدادت الحياة الإجتماعية قساوة، إذ أن التوجه إلى البحث عن متنفس ثان خلقته الرغبة والحاجة عوض أن تخلقه ضرورة الاجتماع وتنظيم النسل، فلقد دفعت الحاجة الظرفية الآنية الكثير من أفراد مجتمع دول الطوائف إلى ترك الزواج والبحث عن

1 الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحيى، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، تحقيق محمد حجي، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية الإسلامية للمملكة المغربية، الرباط، ط1، 1981، ج3، ص ص393-396/ ابن رشد القرطبي المالكي، فتاوى ابن رشد، تحقيق المختار بن الطاهر التليلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1987، ج3، ص ص1535-1537.

2 هو عبد الملك بن إدريس الجزيري الكاتب أبو مروان: وزير من وزراء الدولة العامرية وكاتب من كتابها، عالم أديب، شاعر كثير الشعر، غزير المادة، معدود من أكابر البلغاء، مات قبل الأربعمائة بمدة/ الحميدي، المصدر السابق، ص ص404-406.

3 ابن حزم، طوق الحمامة، ص156/ الحميدي، المصدر السابق، ص ص404-406.

4 ابن حزم الأندلسي، المصدر نفسه، ص155.

شراء الجواري والتمتع بهن، بل إن الحواجز التي خلقتها السلطة نتيجة الانقسام دفع بعضهم إلى السفر والارتحال من مدينة إلبيرة مثلا إلى مدينة قرطبة للبحث عن متنفسه[1].

وما نود أن نصل إليه من خلال هذا الخطاب، هو أن النشء الذي تنتجه هذه الظواهر الاجتماعية قد لا يتمتع في كثير من نواحيه بتلك القيم التربوية والأخلاق السامية التي تؤهله لخوض مغامرة تأسيس الحضارة العربية الإسلامية، وأن مجتمع عصر ملوك الطوائف الذي نحن بصدد دراسته هو ما تصدق عليه هذه الإحتمالات، فهو إن لم يكن سببا في حدوث ذلك التقهقر والتشرذم الحاصل نتيجة إدخال نفسه في عصر أخذ تسميته من طبيعة تفكير أفراده وتوجهاتهم الإثنية –نقصد بها عصر ملوك الطوائف- فإنه قد تحمل جزءا من المسؤولية بحجة أنه لم يربط وجوده بالقيم الأخلاقية والتربوية والفكرية.

فالقضايا التي تعالج المشاكل الإجتماعية كالطلاق ومسائل الحضانة[2] من شأنها أن تثير في شيئ من الوضوع جملة من التعليقات والاستنتاجات، التي تؤدي بنا إلى الاعتقاد بأن إشكالية الأخلاق قبل أن تكون موضوع دراسةٍ بالنسبة لجدلية المجتمع المتغير، فإن الأسرة هي ما يجب نربط بها تلك الإشكالية، لأنها وبشكل نسبي هي من ساهمت في خلقها إلى حياة الوجود، وتلك المثيرات والتحديات الاجتماعية والسياسية التي خلقتها السلطة، هي أول من استجابت لها واحتضنتها سواء في الوسط الأرستقراطي أو العامي، فطغيان تلك المظاهر على الحياة الإجتماعية جذب انتباه واعتناء المؤرخين والكتاب فراحوا يدونون أحداثها ويستقصون أخبارها مثلما نجد أن الكثير من الرسائل والنصوص التي تؤرخ لتلك الإنحلالات الأخلاقية وشيوع الطرب والمجون والبغاء في القرن 5ه/11م خلال عصر ملوك الطوائف[3].

فقد انتشر البغاء في الأندلس وأصبح أمرا مألوفا لدى عامة المجتمع وسميت تلك البغايا بالخارجيات[4]، وقد صاحب تلك الظاهرة ظواهر سلبية أخرى كانتشار الراقصات وظاهرة شرب الخمور في معظم مدن الأندلس، فكانت "إشبيلية من أحسن مدن الدنيا، وبأهلها

1 السقطي، المصدر السابق، ص ص54-55.

2 ابن رشد، المصدر السابق،ج1، ص ص295-296/ الونشريسي، المصدر السابق، ج2، ص354، 278، 343-345.

3 ابن بسام، المصدر السابق، ق3، م1، ص ص 434، 542-543.

4 سامية جباري، الأزمة الأخلاقية في المجتمع الأندلسي كما صورها الأدب –عصر الطوائف والمرابطين-، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم الإسلامية، الجزائر، 2006-2007، ص241/ عصمت عبد اللطيف دندش، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني 510-546ه/1116-1151م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1988، ص ص 337-338.

يضرب المثل في الخلاعة، وانتهاز فرص الزمان الساعة بعد الساعة"[1]، ومن المدن الأندلسية الأخرى التي اشتهرت بتلك الظواهر السلبية نجد مدينة أبدة التي كان فيها "من أصناف الملاهي والرواقص المشهورات بحسن الإنطباع والصنعة، فإنهن أحذق خلق الله تعالى باللعب والسيوف والدك، وإخراج القروي والمرابط والمتوجه"[2].

وفي كثير من الأحيان عندما تنفض أسس الحضارة والمجتمع الحضري أو المدني، فإنها تعمل أيضا بالموازاة على تقويض مجموعة من القيم التي كانت بادئ ذي بدء دعامات ذلك الاجتماع الإنساني الذي ليس في مقدوره الاستغناء عنها، إذ من شأن الفراغ الحاصل نتيجة فقدان الفرد للفكر والوعي الأخلاقيين أن يخلق مدا جمعويا يستشري بين أواسط المجتمع الفاقد لطاقاته الحضارية والأخلاقية والتربوية في ظواهر سلبية غير أخلاقية، كشيوع الحياة الجنسية غير المنظمة التي تعود بالإنسان إلى طبيعته الهمجية التي عهدها في مرحلة ما قبل الحضارة، رغم تشديد كتب الحسبة للقضاء على تلك المظاهر اللاأخلاقية مثل ما أورده ابن عبدون من في قضية مسؤلية دور المحتسب في تحديد أنماط العمل للمرأة الأندلسية بحيث "لا يجلس متقبل الحمام للنساء، فإنه موضع تمتع وزني، لا يكون متقبل فنادق التجار والغرباء إمرأة، فذلك عين الزني"[3] ومراقبتها والحد من حرية النساء الخارجيات عن الوقوف أمام الفنادق والكشف عن مفاتنهن وشعورهن للتقليل من تفشي ظاهرة البغاء والزنا[4].

غير أن تلك العودة لطبيعته اللاإنسانية وبتلك الوتيرة لا تكون عادة نتيجة جهل أفراد المجتمع لفلسفات العلاقات الجنسية، وإنما تكون بالأساس نتيجة ما تخلقه السلطة إلى جنب المجتمع من معوقات، تكسر بها حاجز الإجتماع الطبيعي وغياب المتنفس الذي يترك المجال للأفراد بممارسة تلك العلاقات الطبيعية بشكل منظم، بل إن تلك التجاوزات اللاأخلاقية تصبح مطلبا جماعيا لمواجهة الإخفاق الجماعي، وقد عبر ابن بسام عن شيوع ذلك المد اللاأخلاقي بقوله:"وأقبلت نجوم الطاس تنكدر في الصدور، وقلوب الناس تنتثر في الحجور، وما بقي عقل لم يقع في شرك، ولا جيب كان في شقه من درك"[5].

1 المقري أحمد بن محمّد، نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب، تحقيق: إحسان عبّاس، دار صادر بيروت، 1988، ج1، ص159.

2 المصدر نفسه، ج3، ص217.

3 ابن عبدون، المصدر السابق، ص49.

4 المصدر نفسه، ص ص50-51.

5 ابن بسام، المصدر السابق، ق3، م1، ص434.

فتلك القيم اللاأخلاقية التي عهدها الفرد في مجتمع ملوك الطوائف خلال القرن 5ه/11م، قد انقضى عليها عهدا من الزمن، وخلع عليها كثيرا من فضائل الحياء والخوف والقلق، حتى أصبحت بطول تكرارها المستمر طبيعة ونمطا اجتماعيا مألوفا، وبدل أن يحافظ على طاقاته الإبداعية مستندا إلى قيمه الأخلاقية ومبادئه السامية، نراه ينهار في مستنقعات الرذيلة من خلال تغييب عقله المستقيل، وليس باستطاعته سوى الولع باقتداء أسياده، فإلى جانب انتشار البغاء وحياة اللهو والترف، فإن ظاهرة اقتناء الغلمان والتغزل بهم صاحبت هي الأخرى ذلك التحجر الأخلاقي وأصبحت كوسيلة جديدة تتفنن بها الطبقة الأرستقراطية في جلب المتعة وخلق حياة اللهو والترف[1].

وقد دفعت العناية بتلك الظاهرة بعض المؤلفين والكتاب إلى تأليف كتب ومصنفات في هذا الميدان "وأما صفات المعذرين من الغلمان، فقد جرت خيول فرسان هذا الشأن، بهذا الميدان، وتفننوا في ذلك نثرا ونظما، وتطاردو فيه مدحا وذما"[2] مثل "حديقة الإرتياح في وصف حقيقة الراح" لأبي عامر بن مسلمة، وكتاب "ترك الأعذار في وصف الاعذار" للنواجي، وكتاب "طول الإعتذار في حب العذار" للمنهاجي[3]، وورود الكثير من الأشعار التي تتغزل بهم[4].

ثم إننا لا نتصور بأن انتشار تلك الظواهر قد تقررها نفس الحاجات التي تسترعي أنظارهم، بل إن الوعي الاجتماعي مدين بكل ما يملك لما تقرره الطبقة الأرستقراطية، أو لنقل ما يقرره أصحاب الثراء الفاحش كونهم يتحكمون في كل شيئ، وتلك التقاليد والعادات وتراثه اللامادي سرعان ما يزول إذا ما أصبحت تلك القيم الدخيلة على مجتمعه متأصلة ومرتبطة أكثر بوجدان الفرد، وما يلفت النظر أن ذلك المجتمع المتغير في عمومه لم يكن يشهد ظاهرة التعلق بالغلمان والتغزل بهم، وإنما أصبح أمرا اعتياديا ولا يبدو أمرا معيبا أو غير مرغوب فيه[5]، مع وجود بعض الإشارات عن عزوف وانتقاد بعض أفراد المجتمع لتلك الظاهرة[6]،

1 صلاح خالص، المرجع السابق، ص102/ عمر إبراهيم توفيق، المرجع السابق، ص-ص149-150/ عصمت عبد اللطيف دندش، المرجع السابق، ص341.

2 ابن بسام، المصدر السابق، ق1، م1، ص144.

3 صلاح خالص، المصدر السابق، ص102/ عمر إبراهيم توفيق، المرجع السابق، ص148.

4 ابن شهيد الأندلسي، رسالة التوابع والزوابع، تصحيح وتعليق بطرس البستاني، دار صادر، بيروت، ط1، 1967، ص136/ ابن خاقان، المصدر السّابق، ج1، م1، ص255.

5 صلاح خالص، المرجع السابق، ص102/ خميسي بولعراس، المرجع السابق، ص ص69-70.

6 يقول مبارك الخضراوي في مقالته:" ولكن صيحات الإستنكار تعالت رافضة هذا النوع من الغزل...وغير غريب أن تكون صيحات التحريم، وسيطرة الذوق الإنطباعي والأخلاقي على الذين ترجموا لابن وهبون ودونوا بعض أشعاره قديما سببا في

مثلما يوضح صاحب القلائد في ترجمة ابن وهبون بقوله:" وكان كلفاً بالغلمان، مكتنفا لهم بين الخوف والأمان، فإن الإنفراد بهم كان عليه محجورا، وكان من أجلهم ممقوتا ومهجورا"[1].

فبالرغم مما يعتري تلك الأبيات والقصائد من تذوق أخلاقي وجمالي لتلك الظواهر السلبية، وما تمثله من تصور وصفي وبلاغي من الناحية اللغوية، فلا يمكن اعتبارها وصفا منعزلا أكثر مما هي تعبير عن حال مجتمع انساق وراء غرائزه ومكنوناته الدفينة، وبدل أن يكون ذلك الفن خادما لنفسه في عصر شهد الأدب والشعر قمة سموه، نراه لا يعكس سوى توجه أدبي فرضته حياة البدخ والترف التي عاشتها الطبقات الأرستقراطية، ومع كل ما يقدمه من رسم لمعالم الحياة الإجتماعية والأخلاقية فإنه في نظرنا لم يتعد حدود ترجمة الذوق العام الذي كان سائدا في فترة ملوك الطوائف، إذ أن الإنتاج الأدبي الخاص بالغزل والتغزل كان يجسد فعليا ميول مجتمع بكامله، وحتى تلك القيم التي قد تبدو لنا صامدة في بعض الأحيان إذا ما تكلمنا عن المؤرخين والكتاب المشهورين بعفتهم ووقارهم، نجدها تتهاوى أمام التوجه العام والشمولي الذي حتمه نمط الإنتاج الأدبي، وذلك الذوق خلقته السلطة.

ضياع جزء هام من الأشعار" مبارك الخضراوي، ابن وهبون: شعره القسم الثاني، مجلة دراسات أندلسية، مطبعة المغاربة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس، ع15، جانفي 1996، ص19.

1 ابن خاقان، المصدر السابق، ج2، م2، ص ص770-771/ ابن بسام، المصدر السابق، ق1، م1، ص144/ عمر إبراهيم توفيق، المرجع السابق، ص149.